الفصل الخامس

سنة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فى التوبة

قال تعالى فى سورة مريم: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥١﴾ [مريم].

هو موسى بن عمران، جده يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، أراد الله أن يمن عليه وعلى بنى إسرائيل، ويجعلهم أئمة، ويمكن لهم فى الأرض، ويرى فرعون وهامان منهم ما كانوا يحذرون، وبعد رؤيا لفرعون مصر، بأن نارًا أقبلت من نحو بيت المقدس، وأحرقت دور مصر وجميع القبط إلا بنى إسرائيل .. سأل فرعون الكهنة عن هذه النار، فقالوا له: إنه غلام يولد من بنى إسرائيل، فأمر فرعون بقتل الغلمان وترك النساء. ولكن الله منّ على موسى، وأوحى إلى أمه أن تقذفه فى اليم، بعد أن وضعته فى صندوق؛ حتى يحميه من الغرق، وأوحى الله لها أنه سيرده إليها، وسيجعله من المرسلين، فاطمئن قلبها، وطلبت من أخته أن تراقبه، وأراد الله تعالى أن يلتقطه آل فرعون؛ ليكون لهم عدوًّا وحزنًا، وألقى الله عليه محبة منه وأرجعه إلى أمه؛ كى تقر عينها ولا تحزن.

وتربى فى بيت فرعون، ولبث فيهم من عمره سنين، وكان قرة عين لامرأة فرعون، ووضعه الله تبارك وتعالى على عينه، فتغذى بأطيب الطعام، ولبس أحسن الثياب، حتى شب قويًّا، ولم ير ما رأى بنو إسرائيل من العذاب والإهانة والإيذاء، وهكذا حفظه الله إلى أن بلغ أشده، فآتاه الله العليم الحكيم حكمًا وعلمًا، فهذه النشأة القوية العزيزة، أعطت له عزة ومكانة فى أهل مصر وبنى إسرائيل.

كما كانت سببًا لأحداث كثيرة جاءت على إثرها، ففى يوم دخل موسى المدينة فرأى رجلين يقتتلان، أحدهما قبطى والآخر من بنى إسرائيل، فتدخل موسى، بعد أن استغاثه الرجل الإسرائيلى، فوكز موسى القبطى فقتله، وهو ما يدل على مدى قوته، ولكنه لم يقصد

قتله، فأناب إلى الله، واعترف أنه ظلم نفسه، وأن ما فعله من عمل الشيطان، وهذا من الحكم والعلم الذى آتاه الله إياه، فأدرك أن الإسرائيلى غوى مضل، وعزم على عدم الرجوع إلى مثل هذا، وأنه لن يستخدم نعم الله عليه من القوة والعلم فيما يؤذى الناس أو يضرهم، ولن يكون نصيرًا للمجرمين، وصدق النية لله.

فعندما جاءه الإسرائيلى مرة ثانية لينصره على رجل آخر، أدرك ما فعله وما وعد الله به، فلم يقبل على مساعدته أو مناصرته، وأنعم الله عليه، بأن أرسل إليه رجلًا لم يكن من المدينة نفسها؛ ليحذره وينصحه بترك البلد؛ خوفًا عليه من انتقام الناس، فخرج موسى منها خائفًا مترقبًا ماذا سيحدث له اليوم أو غدًا أو بعد غد، ودعا الله أن ينجيه من القوم الظالمين. وتمتد قصة موسى فى الذنب والتوبة؛ ليرى بعدها ما لم يتوقع وما لم يره أو يسمعه أحد من البشر، إنها الرحلة التى أوصلته إلى تحمل مشاق الرسالة السماوية، وتحمل أعباء النبوة، تحمل فيها مشاق السفر، فلم يذكر أنه كان معه رفيق أو أنيس، وإنما يرجو هداية الله له إلى سواء السبيل.

فهداه الله إلى شيخ كبير، طلب منه العمل معه لمدة ثمانى سنوات، أو عشر إن استطاع، مقابل أن يزوجه إحدى ابنتيه؛ وذلك على صنيعه معهما، فقد سقى لهما لضعفهما، وضعف أبيهما، وكبر سنه.

وأعان الله موسى على قضاء السنوات العشر فى العمل، ثم سار بأهله ليرى النار التى هى نور من عند الله، فكلمه الله تكليمًا، وأعلمه أنه الله رب العالمين العزيز الحكيم، وأن يعبد الله ويقيم الصلاة، وأن يؤمن بيوم القيامة، ولا يصده عن ذلك من لا يؤمن بها، ومن يتبع هواه.

وأعطاه الله دليلًا لنبوته يعرضه على من سيتوجه إليه، وكان هذا الدليل فى شكل آيات ومعجزات لا يقدر عليها البشر، فقد كان يسلك يده فى جيبه، فإذا هى بيضاء للناظرين، ويلقى عصاه فإذا هى ثعبان، فإذا أخذها عادت إلى سيرتها الأولى، وأنزل على أهل فرعون آيات أخرى، منها الضفادع والقمل والدم والطوفان والجراد. إلا أنهم استكبروا وكانوا قومًا مجرمين، وقالوا: ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأعراف]، واستمر الذنب يلاحق موسى حتى بعد نبوته وتكليمه لله رب العالمين؛ فقد كان اختبار الله له ولمقدرته على الجهاد الأكبر، وهو كلمة حق عند سلطان جائر؛ إنه فرعون الذى رأى منه بنو إسرائيل من لم تره أمة فى زمانهم، وكان لخوف موسى من ذنبه، أن طلب من الله رب

العالمين أن يرسل معه أخاه هارون، فقد كان أفصح من موسى فى كلامه، فأراد موسى أن يكون معه معينًا على أداء رسالته، فتقبل الله منه الدعاء، وأرسل معه أخاه هارون نبيًّا، فشد من أزره، وقوى من عزيمته، بعدما بشره الله تعالى بأنه ومن تبعه هم الغالبون.

فعندما ذهبا إلى فرعون وقالا: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الشعراء]، وطلبا منه أن يرسل معهما بنى إسرائيل، فذكره فرعون بفضله عليه، وأنه رباه فى بيت الفرعون، وتمتع بكل خيراته، ثم ذكره بذنبه الذى فعله، وهو قتل القبطى، ثم بكفره بفرعون وخروجه عن حكمه.

إلا أن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ اعترف له بذنبه فيما يخص قتل القبطى، وأنه فعل ذلك وهو من الضالين، وكان ذلك سببًا لفراره منهم وخوفًا على نفسه، فوهب الله له حكمًا وعلمًا، وجعله من المرسلين، فخاف أن يتبعه أهل مصر، فأراد أن يثبت ملكه، ويعلى من شأن نفسه أمامهم، ويهزم موسى وهارون؛ ليكونا عبرة لكل من سمع بهما أو شاهدهما.

وأراد موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يكون هناك لقاء بينه وبين فرعون أمام الملأ فى يوم العيد؛ فهذا أدعى للنشر والتصديق، وليراه الصغير والكبير والأقباط وبنو إسرائيل، وهدد فرعون موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأنه لو اتخذ إلهًا غيره ليكونن من المسجونين، فألهمه الله تعالى أن يستخدم الآيتين، وهما يده والثعبان، إلا أن فرعون اعتبر ذلك سحرًا، ورأى أن يقابل السحر بالسحر والكلام بالكلام؛ ظنًّا وجهلًا أنه على الحق، وأن ما عدا ذلك الباطل، وشتان بين كلام البشر وآيات الرحمن، وقد أراه الله الآيات كلها، إلا أنه كذب وعصى.

وعندما جاء اليوم المشهود نصح فرعون السحرة أن يجمعوا كيدهم ويأتوا بما يستطيعون من علم السحر لهزيمة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ووعدهم بأنهم سيكونون مقربين لفرعون إذا استطاعوا أن يهزموه ويكونون هم الأعلى فى السحر والمكر، فيمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين؛ فثبت الله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأنه لا يفلح كيدهم، وأنه هو الأعلى، وهو المنتصر.

وظهرت بوادره عندما ألقى موسى عصاه، فإذا هى ثعبان ضخم يلقف ويأكل كل ما صنعه السحرة، وسحروا به أعين الناس، وكانت آية مبصرة لكل من حضر اليوم، فآمن له السحرة قبل أن يأذن لهم فرعون؛ فقد كانت الآيات أكبر من فرعون وهامان وجنودهما، فدعوا ربهم عند العذاب الذى ألحقه بهم فرعون: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف]، وقالوا لفرعون: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس].

وخشى فرعون وملؤه أن يترك موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فيؤمن به الكثيرون ويتركوه ويزول ملكه، فقرر فوعون أن يقتل أبناء المسلمين الذى آمنوا بموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ويقهرهم أجمعين ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾[الأعراف:١٢٨]، وقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾[يونس].

وأنعم الله على موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعد أن قرر فرعون قتله ومن معه، برجل من آل فرعون يكتم إيمانه، أعطى النصيحة لفرعون، وجاهد أفضل الجهاد، فحاول بالعقل والمنطق، فقال لفرعون وملئه: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾[غافر].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر].

وأرسل الله على فرعون وقومه الآيات والعذاب، فجاء الطوفان، والجراد والقمل والضفادع والدم، فطلبوا من موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يدعو الله لهم، فإن كشف عنهم العذاب فسيؤمنون به وسيرسلون معه بنى إسرائيل، فلما كشف الله عنهم الرجز والعذاب إذا هم ينكثون.

ودعا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على فرعون وملئه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾[يونس]. فاستجاب الله لدعائه عندما تراءى الجمعان: جَمْعُ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ المسلمون وجَمْعُ فرعون الكافرون، فأوحى الله لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يضرب بعصاه البحر، فانفلق وغرق فرعون وأهله، ولم تنفعهم أموالهم ولا سلطانهم ولا جناتهم ولا مقامهم. قال تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾[الشعراء].

غرقوا جميعًا ولم ينفعهم إيمانهم حين رأوا عذاب الله، فهذا وقت لا ينفع فيه التوبة ولا الإيمان، يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥)﴾ [غافر].

أما فرعون فقد نجاه الله ببدنه؛ ليكون لمن خلفه آية، ولم يقبل الله له توبة. يقول الله تعالى فى سورة يونس: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢)﴾ [يونس].

وقد عرف المسلمون هذا اليوم الذى كان يصومه اليهود، وهو يوم عاشوراء، فقال الرسول ﷺ لأصحابه: **«أنتم أحق بموسى منهم فصوموا»**(١).

وبعد نصر المسلمين وهم الجماعة التى آمنت بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ والتى اختارها الله لتكون الجماعة المؤمنة، كان لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قصة أخرى معهم فى التوبة. فبعد أن جاوزوا البحر أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم. فطلب قوم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ منه أن يجعل لهم إلهًا كما لهم آلهة، فقال لهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩)﴾ [الأعراف].

وذكرهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بنعم الله عليهم؛ فقد جعل منهم الأنبياء، وجعلهم ملوكًا، وطلب منهم أن يدخلوا الأرض المقدسة، ولكنهم خافوا ممن فيها من الملوك الجبارين، وأنهم لن يدخلوها إلا بخروجهم منها، ولكن فى كل قوم نجد فيهم أصحاب عقول ينيرون لغيرهم الطريق، فقال اثنان منهم: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣)﴾ [المائدة]، إلا أنهم رفضوا دخولها، فدعا عليهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يفرق الله بينه وبين القوم الفاسقين، واستجاب الله لدعائه، فجعلها محرمة عليهم أربعين سنة، يتيهون فى الأرض.

وقصة أخرى لقوم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ توضح ظلمهم لأنفسهم، فقد أنعم الله عليهم بعد نجاتهم من الغرق بالطعام الطيب والشراب اللذيذ، والغمامة التى تقيهم حر الصحراء، إلا

(١) البخارى فى التفسير (٤٦٨٠).

أنهم طلبوا من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يدعو لهم ربه ليخرج لهم مما تنبت الأرض، وذلك كما كانوا يرون فى مصر، فهم يطلبون أن تزرع الصحراء التى لا ماء فيها كما تزرع أرض مصر، وأن يأكلوا منها كما كانوا يأكلون فى مصر، فقال لهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[البقرة:٦١].

فهذه نعم الله عليهم، وهذا الجحود أوقعهم فى الذنب وغضب الله عليهم.

ولموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قصة أخرى فى التوبة إلى الله، والتى فيها يطلب منه - عز وجل - أن يراه؛ فهو لم يكتفِ بكلامه. يقول الله تعالى فى سورة الأعراف: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾[الأعراف].

وقد طلب قوم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الطلب نفسه من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا أنهم وضعوا هذا الطلب شرطًا لإيمانهم، فعاقبهم الله بالصاعقة، ثم تاب عليهم، وبعثهم من بعد موتهم. يقول الله تعالى فى سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾[البقرة] .

ولما رجع موسى من ميقات ربه، وبشره الله بأنه اصطفاه على الناس برسالاته وبكلامه، وكتب له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلًا، وأمره بأن يأخذها بقوة، ويأمر أهله بأن يأخذوا بأحسنها - وجد قومه قد اتخذوا من حليهم عجلًا جسدًا، وكانوا ظالمين لأنفسهم، فقال لهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾.

ولكنهم ندموا على ما فعلوا: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾[الأعراف]، وهو اعتراف بالذنب، وطلب للمغفرة من ربهم، فقال لهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾[البقرة]. قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَّ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾[الأعراف] .. فهذه توبة

أخرى لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يتوب فيها لنفسه ولبنى إسرائيل، الذين عبدوا العجل، وهم السفهاء، وهو إحساس منه بالمسئولية تجاههم، حتى وهو ليس معهم.

وقد توجه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى الله؛ طالبًا المغفرة له ولأخيه على ما فعله قومه عند غيابه عنهم، وعبادتهم للعجل الذى صنعه لهم السامرى، وهو فرد منهم، فأضلهم واتبعوه، وكادوا يقتلون هارون، فقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه].

قال له موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾ [طه]، فقال له هارون: ﴿إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [طه]، قال موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف].

وكانت عاقبة من اتخذوا العجل غضبًا من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا، ولكن الله سبحانه وتعالى، الرحمن الرحيم، قبل توبة من تاب إليه، قال تعالى فى سورة الأعراف: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأعراف].

الآيات التى سننطلق منها لاتباع سنة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

قال تعالى فى سورة القصص: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص:١٦]؛ للإحساس والاعتراف بظلم النفس.

قال تعالى فى سورة القصص: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القصص]؛ لسرعة التوبة والإنابة إلى الله – عز وجل.

قال تعالى فى سورة الأعراف: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأعراف]؛ للإحساس بالمسئولية تجاه الآخرين.

قال تعالى فى سورة الأعراف: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى ﴾ [الأعراف]؛ لحدود علم الناس بالله تعالى.

الإحساس والاعتراف بظلم النفس:

قال تعالى فى سورة القصص: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القصص] .. أدرك موسى أنه وقع فى الذنب، فظلم نفسه، وطلب من ربه أن يغفر له ذنبه، فاستجاب الله دعاءه قبل نبوته ونزول التوراة. ولكن هذا ما بين المذنب وربه، أما ما بين الإنسان ومن ظلمه، فلا يقبل المظلوم أن يتعدى عليه شخص، ثم يلجأ إلى الله ليستغفر وتنتهى حقوقه وتنتهى مظلمته. ولذلك لم تنته هذه المشكلة واستمر الذنب يلاحق موسى سنوات بالخوف والترقب، وترك الأرض.

أما توبة الله على موسى، فقد قبلها، وقبل دعوته، وهداه إلى سواء السبيل، ووجد من يستأجره، ويؤمنه، ويعيش معه إلى أن بعثه الله بالنبوة، وحتى بعد النبوة، وقبول دعوته، ومؤازرة أخيه هارون له بعد أن أصبح معه نبيًّا، فلم ينته خوفه من الذنب واحتمال قتله، ولكن رغم ذلك اعترف لفرعون بهذا الذنب، وأنه فعل ذلك ضلالة منه، إلا أن الله وهب له الحكم، وجعله من المرسلين.

فهذه توبة موسى قبل النبوة، وقد اشتملت على عناصر التوبة، وهى الاعتراف، والإقلاع عن الذنب، وعدم الرجوع إليه بالعزم والإصرار، مع الندم والاستغفار والدعاء إلى الله، أما ما يتعلق بالعنصر الخاص بالمظلوم، فلم يتحقق وهو رد مظلمته. وهو ما جعل الإحساس بظلم النفس، والخوف من القصاص، يلاحقه، إلى أن طمأنه الله وأعلمه أنه معه، وثبته بالآيات التى سيواجه بها فرعون قومه.

يقول الله تعالى فى سورة الأحزاب: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب]، وقيل إن الأمانة هى الفرائض، وقيل: الطاعة، وقيل: الدين والفرائض والحدود، وقيل: إنها التكاليف بقبول الأوامر والنواهى بشروطها.

فظلم الإنسان وجهله من أسباب وقوعه فى الذنب؛ فهو لا يدرى عظم الدور الذى خلق من أجله، فهو خليفة الله فى أرضه، وهو موكل بحفظ هذه الأرض وإعمارها، وحفظ أماناتها، التى لم يستطع غيره من المخلوقات تحمل هذه الأمانة.

ولكن متى يكون الإنسان ظالمًا لنفسه؟ هل عندما يلحق بها الضرر، أم يلحق بغيرها، أم لا يلحق بنفسه أو بغيره، ولكنه لا يرى ولا يتحرك للظلم حوله؟ وقد أكرمنا الله تعالى بالقرآن الكريم، هدى ونورًا للمتقين، فلنأخذ من هذا النور آيات؛ لنضيء بها ظلمة الظلمات.

يقول الله تعالى فى سورة البقرة: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾﴾[البقرة]، فقد ظلموا أنفسهم، ووقعوا فى أكبر الكبائر، وهو الشرك بالله، فكانت عاقبتهم قتل أنفسهم؛ ليتوب الله عليهم.

ويقول الله تعالى فى سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة]. ويقول الله تعالى فى سورة النساء: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾[النساء].

فهذا الظلم للنفس قد ألحق بها ضررًا بالموت والقتل والحرمان للطيبات، كما أوقعهم فى أكبر الظلم، وهو الشرك بالله.

وقد يكون الإنسان ظالمًا لنفسه عندما يقع ظلمه على الناس، يقول الله تعالى فى سورة البقرة: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾[البقرة].

فإذا ظلم الزوج زوجته، أو ظلم الرجل مطلقته، فإنه بذلك يكون قد وقع فى ظلم النفس؛ وذلك لأنه حملها ذنوبًا لا تستطيع تحملها، وهى عدم تقوى الله.

إذن فظلم النفس قد يكون بأن يرتكب الإنسان ذنبًا فى حق نفسه، أو فى حق الناس، أو فى حق رب العالمين، وهى أعظمها ظلمًا للنفس. وعلى من وقع فى ظلم نفسه أن يحسن إليها بالأعمال الصالحة قبل أن يأتى يوم الحساب. يقول الله تعالى فى سورة النمل: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾[النمل]. ويقول فى سورة المائدة: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾[المائدة].

أما فى يوم الحساب فتجزى كل نفس بما عملت، يقول الله تعالى فى سورة غافر: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾[غافر].

ربما نستطيع بعد هذا التقسيم لظلم النفس أن نحدد مع أنفسنا، أين نحن من هذا الذنب، ويجب أن نعطى الظلم العظيم الأهمية التى يستحقها.

فعندما نزلت الآية فى سورة الأنعام: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾[الأنعام]، شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أينا لم يظلم نفسه؟! قال: إنه ليس الذى تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾[لقمان]، إنما هو الشرك(١).

فعندما نقول: لا إله إلا الله، فيجب أن نعنى ذلك حقًّا، وعندما نقول: الله أكبر فيجب أن يكون أكبر من كل شىء فى الوجود، وعندما نحمده ونشكره، فيجب أن يكون نابعًا من اعتقاد راسخ فى القلب، بأن الشكر لله وحده على نعمه التى لا تحصى ولا تعد، وأننا لا نحصى ثناءً عليه.لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير. هو الأول والآخر، وهو الظاهر والباطن، ولا حول ولا قوة إلا به.

وأعظم ثمرة يعطيها الله لمن يؤمن به ولا يشرك به شيئًا فى الحياة الدنيا هى الأمن: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾[الأنعام:٨٢]، فهم لا يخافون أحدًا إلا الله؛ فيعيش المؤمن هادئًا مطمئنًا فى جميع أحواله، كما تعجب من حاله الرسول ﷺ، فهو خير فى كل حال؛ إذا أصابه خير شكر فكان خيرًا له، وإذا أصابه شر صبر فكان خيرًا له .. فهذه هى الأمن والهداية، وهى تحمل معانى الأمن؛ من أمن نفسى وأمن روحى وأمن جسدى، فيا حبذا لو كانت حياتنا خالصة بالإيمان بالله الواحد الأحد، ننعم بالأمن فى الحياة الدنيا، ونفوز بجنة الرضوان فى الآخرة، اللّٰهم آمين.

وإذا اطمأنت الأخت إلى هذه الحالة من الإيمان، فعليها أن تبحث عما إذا كانت ظلمت نفسها فى حق الآخرين. وتستفيد من مدرسة موسى فى التوبة، فتندم على فعلتها، وتقلع عنها، وتعزم على عدم الرجوع إليها، وتتوجه إلى الله بالدعاء وطلب العفو والمغفرة، ثم لا تنسى أن ترد مظلمة من ظلمت نفسها فيهم، فإذا كان شيئًا ماديًّا ردته إليهم، وإذا كان أخلاقيًّا حسنت

(١) البخارى فى التفسير (٤٦٢٩).

أخلاقها واعتذرت، وأكثرت من فعل الخيرات، وخاصة إذا لم تستطع الرجوع لمن ظلمتهم؛ فإن الحسنات يذهبن السيئات.

ثم تبحث الأخت عما إذا كانت قد ظلمت نفسها بإلحاق الضرر عليها أو على صحتها وجسدها، وربما يكون ذلك فى بعض الأحيان بالإسراف فى الطعام أو الإقلال منه، أو الاكتفاء بنوع معين، أو تعاطى أدوية مضرة، أو الكسل والركون اللذين يؤديان إلى السمنة والمرض، وقد يكون الضرر فى علمها؛ كأن تختار نوعًا من العلم يناسبها ولا تستفيد منه، فتضيع وقتها فيه ومالها وصحتها، ثم يذهب هباء كأن لم يكن، وقد يكون الضرر فى نفسها، بأن تترك لها هواها، فتشقى أو تتكاسل فى تزكيتها وإصلاحها ورياضتها، بحيث تقوم اعوجاجها وجموحها نحو الباطل أو الرذائل.

فلتبحث الأخت عن أى نوع من هذا الظلم للنفس قد وقع عليها، ولتدقق فى ذلك. ولتكن أمينة مع نفسها؛ حتى تستطيع أن تجد العلاج بالتوكل على الله، وإخلاص النية له فى التوبة النصوح، والتى لا ينتظر من بعدها إلا الغفران من لدن غفور رحيم.

سرعة التوبة والإنابة إلى الله - عز وجل:

قال تعالى فى سورة القصص: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾[القصص].

سرعة إدراك الخطأ من أهم عوامل تصحيحه، فإذا لم يدرك موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن هذا العمل من عمل الشيطان، واعتبر أن هذا دليل على قوته، لاستخدم هذه القوة بعد ذلك، وخاصة عندما تعرض للموقف نفسه فى اليوم التالى، ولأخذ صفة الكبر والظلم ممن نشأ فى بيتهم، وخاصة فرعون وأعوانه.

وإذا أخذنا من الآيات السابقة فى سورة القصص منهجًا للتفكير، قال الله تعالى فى سورة الأعراف: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾[الأعراف]، فربما فتحت لنا مواقف، ندرك فيها أهمية سرعة التوبة والرجوع إلى الله للاستغفار وطلب العفو والرحمة من لدن غفور رحيم.

- ألم تسمعى قول بعض الفتيات: إنها تؤجل الحجاب إلى بعد الزواج رغم اقتناعها به!

- ألم تؤجل بعض الزوجات مصالحة أم زوجها، وتركت ذلك للأيام؛ لعلها تصلح ما فى النفوس !

- ألم تترك بعض الأخوات الأمراض البسيطة فى قلبها، إلى أن رانت على قلبها، فلم تستطع علاجها !

- ألم يمت بعض المظلومين قبل أن يفيق ظالموهم ويعطوا لهم حقهم!

- ألم تسافر بعض الأخوات، ولا تستطيع الرجوع لترد مظالم ألحقتها بغيرها!

- ألا ننسى كثيرًا مما نقول ونعمل!

- ألم يدرك الموت بعضنا وهو فى غفلة عن هذا!

- ألم نخطأ فى تقديرنا للأمور وعواقبها!

- ألم تلهنا الدنيا - بما فيها - عن ذكر الله، فاتبع البعض أهواءه؛ أملًا فى الفوز بها!

- ألم يستحوذ الشيطان على بعضنا، وأنساهم ذكر الله، والرجوع إليه!

- ألم تؤجل بعض الطالبات بر والدتها والإحسان إليها إلى ما بعد الامتحانات!

- ألم تؤجل بعض الأخوات الصلاة عن موعدها، إلى أن حانت موعد الأخرى!

فهذه بعض من كل، أو قليل من كثير، وما علينا إلا التفكر والتفكير؛ للفور بمقام المقربين لله رب العالمين: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾[آل عمران].

ألم تسألى نفسك؟ لماذا السرعة فى هذا الأمر، طالما أن الله غفور رحيم، ربما تجيب عليك السطور القليلة القادمة عن هذا السؤال، وربما تجدين فى نفسك إجابات أخرى، وربما يجيبك آخرون، ولكن الجواب الفصل فى هذا الأمر، هو السرعة وعدم التسويف فى التوبة إلى الله.

هل العمر يعلمه أحد من الخلق؟ بالطبع لا، فلكل أجل كتاب يعلمه خالق الخلق الواحد الأحد، هل الفتاة التى تؤجل طاعة ربها بارتدائها للحجاب، تعلم أن العمر سيمتد لها إلى ما بعد الزواج؟ فربما تموت وهى نائمة، أو وهى فى الشارع تمشى مطمئنة على الرصيف، عندما تأتى مركبة فتصدمها،وهى تفكر كيف تستثمر جمالها وشبابها؛ لكى تجذب الرجال، فتحظى

بفرد منهم يتزوجها، فيسعدها فى الحياة الدنيا، والتى انتهت فى لحظة التفكير. فلا يصح لها أن ترجع إلى الدنيا فتعمل عملًا صالحًا؛ فقد انتهت حياتها عند هذا الحد، فكشفت عورتها فى الدنيا، فهل تنتظر أن يسترها الله يوم القيامة؟! إنها أنهت حياتها بالمعصية، فجاءها الموت فجأة، وكان عاقبتها الخسران المبين.

وكذلك الحال لمن تركت فريضة من فرائض الله، سواء أكانت صلاة أو صدقة، فهل تضمن أن يمتد عمرها إلى وقت الصلاة القادمة؟!

- وهل تضمن أن يمتد عمرها لتصالح من خاصمتهم وترد مظلمته؟!، وهل تضمن أن يمتد عمر من ظلمتهم لترد لهم مظلمتهم؟!، فربما توفى من وقع عليه الظلم، فلا تستطيع حينئذ أن تعتذر أو تطلب الصفح والمصالحة معه؛ فتندم على هذا، وتنظر يوم الحساب لكى يأخذ من حسناتها، وإذا فنيت يطرح عليها من سيئاته. ألا نخشى هذا اليوم؟!

هل يمكن أن تبقى الصغيرة صغيرة؟ أعنى صغائر الذنوب .. هناك قاعدة تقول: إنه لا صغيرة مع إصرار، ولا كبيرة مع استغفار.

فتراكم الصغائر يمرض القلب والنفس. يقول الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين].

فالقلب يران عليه من كثرة المعاصى، ويصدأ ولا يستطيع أحد أن يجلى هذا الصدأ إلا بكثرة الاستغفار، وذكر الله هو الوسيلة لجلاء هذا الصدأ، أما إذا رضيت الفتاة بهذا القلب المطموس بالمعصية، فعليها أن تنتظر اليوم الذى تحجب فيه عن ربها، ثم دخول النار - والعياذ بالله!. إذن فلتنظرى إلى الصغائر مهما صغرت وتجليها أولًا بأول. وربما تجد الفتيات مثالًا قريبًا لهن فى ذلك وهو «جهاز البوتوجاز» أو موقد الغاز، إذا قامت بتنظيفه أولًا بأول من كل وسخ ولو صغيرًا، فسيسهل عليها تنظيفه، وإذا تركت الأوساخ تتراكم فلا جدوى بعد ذلك، وحتى إذا استطاعت تنظيفه بقدر الإمكان، فسوف يترك أثرًا وبقعًا للاتساخ. وكذلك الحال فى الملابس التى تترك بها بقعة صغيرة إلى العام المقبل، فستجدين صعوبة، وربما تستعصى إزالة هذه البقعة.

وفى المقابل ما أجمل الفتاة التى تحاسب نفسها، وتستغفر ربها، وتسرع فى الاستغفار!، فربما كان هذا الذنب نظرة حق على أختها، أو عدم وفاء بالوعد واللقاء فى ميعاد محدد، أو تأخير قضاء الحاجة لوالدتها إلى أن تنجز عملها الخاص، أو إسراف فى الحديث فى التلفون، أو لغو

فى الحديث بما لا يفيد، أو عدم استثمار الوقت فيما يرضى الله، أو عدم إكمال العمل، أو تأخيره، أو عدم إتقانه، أو الامتناع عن زيارة مريض، أو عدم التبسم فى وجه أختها، أو عدم إلقاء السلام عليها، أو عدم مشاركتها فى عملها فى وقت فراغها، أو عدم الاهتمام بمظهرها ونظافتها وطهارتها، أو عدم اختيار محاسن الألفاظ والكلمات، أو إسرافها فى أمرها بكثرة الشراء لمتطلباتها، وعدم الاكتفاء بما يقضى لها حاجتها، أو عدم تبليغ رسالة وكلت بتبليغها، أو الإثقال على والديها بالمطالب التى لا قبل لهما بها، أو إحداث ضوضاء فى مكان يستحب فيه الهدوء، أو وقت يستحب فيه الراحة، أو عدم تنظيم حياتها وشئونها، أو عدم تعلمها ما ينفعها فى دينها ودنياها، بأن تتعلم أشياء تافهة، أو تتعمد الكذب على أخواتها؛ من أجل مصلحتها الخاصة.

فهذه أخطاء أو ذنوب ربما لا نلقى لها بالًا، وربما لا نحس بها؛ من كثرة تكرارها حولنا، وربما لا يستغفر لها البعض، ولا يحاسبون أنفسهم عليها، ولكن إذا حاسبت الأخت نفسها على هذه الذنوب أولًا بأول، فستقى نفسها من الوقوع فى الكبائر، مثل الشرك بالله، وعقوق الوالدين، وقول الزور. وإذا حاسبت الأخت نفسها عليها فستنقى قلبها، وتطهر وتزكى نفسها من اتباع الهوى، واستحواذ الشيطان عليها، ونسيان ذكر الله. وإذا حاسبت الأخت نفسها عليها، فستكون قدوة لغيرها من المقربات إليها، وتحذو حذوها الكثيرات من المؤمنات.

فالحرص على الغير وأدب المعاملة والاعتذار عند الخطأ، كلها أخلاق يمكن أن تقتدى بها الكثير من الأخوات.

* لتسأل الأخوات أنفسهن: هل يدوم الحال فى معظم الأحوال؟

يقال: إن دوام الحال من المحال، فلا أحد يعيش حياته فى مرحلة واحدة، ولا أحد تدوم له صحته وعافيته إلى الكهولة، فكل يوم هو فى شأن غير سابقه.

عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ، قال: **«بادروا بالأعمال سبعًا، هل تنتظرون إلا فقرًا مُنسيًا، أو غنى مُطغيًا، أو مرضًا مفسدًا، أو هرمًا مفندًا، أو موتًا مجهزًا أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر!»** [رواه الترمذى، وحديثه حسن][1].

(١) سبق تخريجه، ص٧١.

فكل هذه الأحداث والأحوال قد تمر على أحدنا، فتغير مساره وحياته، فلا يستطيع أن يقدم عملًا كان سهلًا عليه بالأمس وميسرًا، ولكن يصبح فى وضع النسيان، أو الطغيان، أو الفساد؛ الضعف العقلى أو الموت الفجأة، ومثل هذه الأحوال لا يستطيع أحد أن يضمنها لنفسه، وهو ما يؤكد على سرعة القيام بالأعمال الصالحة، والتوبة إلى الله؛ فما هو سهل اليوم قد يكون صعبًا عسيرًا غدًا.

فإذا كان لديك اليوم مال، هل تفكرين فى رد أمانات الناس عندك، أم تفضلين أن تشترى لوازم لك أو حاجيات، ربما لا تكون أساسية أو ضرورية، وتؤجلين دفع أموال اقترضتيها.

وإذا كنت تتمتعين بصحة جيدة ووقت فراغ، هل تستخدمين هذه الصحة وهذا الوقت فى معاونة الآخرين، أم تدخرينها لغدٍ؛ لتؤدى عملًا خاصًّا بك؟

وإذا كان لديك علم نافع لغيرك، هل ستقومين بتعليمه لهن؟ أم ستفضلين التعلم دون التعليم، وتؤجلين ذلك لوقت آخر؟

وإذا كان لديك ملابس متراكمة فى دولابك منذ سنوات، فهل ستتصدقين ببعضها أو كلها هذا العام؟ أم ستضعين عليها ما زاد عن حاجتك هذا العام، وتؤجلين ذلك؛ فلربما تحتاجينه فى أعوام مقبلة؟

وإذا رزقك الله بحلوى كثيرة من زائرات لك وأخوات يجاملنك، فزادت عن حاجتك واستهلاكك، هل ستضعينها فى الثلاجة لشهور مقبلة؟ أو هل ستبحثين عمن تعطينه بعضها وتتركين ما يكفيك والقليل؟

هذه أمثلة من كثير، ولكن إجاباتك ستكون منبهًا لتفكيرك، ومقيمًا لدرجة إيمانك بالله، ودرجة طلب العفو والمغفرة الصادقة، وعلى أية حال يجب أن نعطى قبل ألا نستطيع، وأن نعمل قبل أن نعجز عن العمل، وأن نتوب قبل أن نموت فنبعث على ما متنا عليه.

ولأهمية الوقت ومحدودتيه دور فى ضرورة سرعة التوبة، ولتسأل الأخت نفسها: ماذا إذا ضيعت وقتها فى الأخطاء والذنوب؟ هل ستبقى لها أوقات للطاعة والاستغفار؟ أم سيضيع الوقت فى حل المشكلات، ورد المظالم، وطلب العفو من الناس، وعقد الجلسات للتصالح، وإما أن تنتهى بالوفاق، ويكون هذا من فضل الله، وأما أن تنتهى كما بدأت، وأما أن تنتهى بأكبر مما بدأت، وتزداد وتتعقد الأمور – والعياذ بالله؟

فأين إذن الوقت لطاعة الله وعمل الصالحات؟ ألا نوفر وقتنا لما هو أطيب وأفضل عند الله؟ وهو ذكر الله والطيب من القول، وإشغال القلب والنفس والجوارح بطاعة الله فى السر والعلن وفى كل لحظة، فسنستفيد ونفيد، ونعلى من الدرجات، ونُعلى معنا غيرنا. أهذا أفضل أم الأمراض والعلاج؟! فالمرض ألم وعذاب، والعلاج إما يشفى بعد تذوق المر والدواء، وإما يزيد الداء داء.

ولتأخذ الأخوات مثالًا لذلك، فى ورقة الامتحان فى لجنة المدرسة أو الجامعة، فهذه الورقة محدودة بعدد معين من الصفحات، والوقت للحل محدود بعدد معين من الساعات، فعليها أن تجيب عن الأسئلة المحددة فى ورقة الامتحان.

فإذا بدأت الإجابة بعدد من الأخطاء، ثم انتقلت إلى السؤال الثانى، ووقعت فى عدد آخر من الأخطاء، ودخلت على إجابة السؤال الثالث فأخطأت فى حل بعض الأمثلة، ثم بدأت تراجع الإجابات، هل تستطيع أن تصحح الإجابات التى أخطأت فى حلها كلها قبل أن ينتهى الوقت؟ وماذا ستكون شكل ورقة الإجابة بعد هذا التصحيح؟ وإذا أخطأت مرة ثانية هل تستطيع تدارك هذا الخطأ؟

إن الأمر بالغ الصعوبة، وخاصة إذا كانت الأخطاء كثيرة، وحتى لو كانت صغيرة، فكثرتها ستجعل من العمل شيئًا غير مرض على الإطلا، ولكن هذا المثال لا ينطبق على جميع الحالات، فالخطأ والنسيان من صفات البشر؛ ولذلك فهو شىء متوقع، ولكن كثرة الخطأ هو محل الكلام. وكذلك المراجعة ضرورية لتصحيح الأخطاء، ولكن إذا زادت لا يسعف الوقت أى إنسان. فهكذا الحياة.

فلنسرع بالتوبة من قبل أن يأتى أحدنا الموت، فيقول: ﴿رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون].

ولنسرع بالتوبة قبل أن تكبر صغائرنا من الذنوب.

ولنسرع بالتوبة قبل تغير الحال والأحوال.

ولنسرع بالتوبة قبل فوات الأوان: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [المنافقون].

اللّٰهم إنا نستغفرك يا عالم الغيب والشهادة من كل ذنب آتيناه فى ضياء النهار وسواد الليل، فى ملأ أو خلاء، وسر وعلانية يا حليم.

الإحساس بالمسئولية تجاه الآخرين:

قال تعالى فى سورة الأعراف: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾[الأعراف].

تقص علينا هذه الآيات موقفًا لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأخيه هارون مع قومهما، وكيف طلب موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من ربه المغفرة، وأحس بالمسئولية تجاه خطأ القوم فى غيابه. فقد غاب عنهم لميقات ربه تعالى، وتعجل فى تركهم على أمل منه أنهم سيسيرون على نهجه، وأنه ترك لهم أخاه هارون، فلم يتركهم بدون مرشد، ولم يضع فى اعتباره، ولم يفكر فيما يمكن أن يحدث منهم تجاه عبادتهم لله الواحد الأحد، رغم أنهم كانوا قد طلبوا منه هذا الأمر قبل ذلك، وقد أخبره الله بأنهم قد ضلوا، واتبعوا السامرى، وهو رجل منهم، صنع لهم عجلًا من ذهب المصريين، الذى أخذه اليهود منهم، فاتبعوه وعبدوه، وأحس بعضهم أنهم قد ضلوا، فطلبوا المغفرة والرحمة من الله - عز وجل - إلا أن البعض الآخر استمر فى ضلاله، وكادوا أن يقتلوا هارون، واستضعفوه، فتوجه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بطلب المغفرة له ولأخيه، وأن يدخلهما الله فى رحمته.

أما السامرى فقد كان لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ موقفًا وحديثًا معه، يقول الله تبارك وتعالى فى سورة طه: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾[طه].

فقد دعا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على السامرى ألا يمس أحدًا؛ معاقبة له على مسه ما لم يكن له مسه، وهو أثر فرس جبريل، الذى أخذ منه قبضة، واستخدمها فى صناعة العجل، وتوعده فى الآخرة بأن له موعدًا لن يخلفه.

أما الذين أطاعوه ولم يتوبوا، فإن الله لم يقبل منهم توبتهم إلا بعد أن يقتلوا أنفسهم.

يقول الله تعالى فى سورة الأعراف: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾[الأعراف].

ربما تكون فى هذه الآيات إشارات لدروس عريضة ومتنوعة، لا يجوز أن نتركها، منها: أهمية الالتزام بالوقت، وأن التعجل فى أمور العبادة يمكن أن يأتى بنتائج لا تحمد عقباها: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾[طه].

وأن هناك فتنًا يمكن أن يتعرض لها المؤمنون، والذين على الهدى، وهو ما يجعل المؤمن دائمًا فى رجاء لرضاء ربه عليه، وفى خوف لعدم التوفيق فى أى من الأمور. فقد يكون المؤمن قد وقع فى ضلالة سابقًا، ولم يتطهر منها كما يجب، وبقيت منها جزء فى قلبه، يمكن أن تنبت إذا وجدت الظروف لذلك، ففى البداية كان الطلب: ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾[الأعراف:١٣٨]، وفى النهاية كانت: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [الأعراف:١٤٨].

إنه لا يضركم من ضل إذا اهتديتم. فبعض المؤمنين أدركوا أنهم على ضلالة ولم يكملوها، وتوجهوا لله بالتوبة والاستغفار: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأعراف]، وبعضهم رفضوا التوبة: ﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾[طه].

﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾[الأعراف:١٤٨].

وقبل الله توبة من استغفر فى وقت الضلالة، أما الذين أصروا على حالهم، فنالهم غضب من ربهم، وذلة فى الحياة الدنيا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾[الأعراف].

إذن فهذه ثلاثة أمور: (أهمية الالتزام بالوقت، حسن التطهر، حسن الرجوع إلى الله والتوبة إليه).

كان يجب أن نذكرها قبل الدخول فى منهج موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فى تحمل المسئولية. لعلنا نتسائل: لماذا توجه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بطلب العفو والمغفرة والرحمة له ولأخيه على إثر عبادة قومه للعجل؟ هل قصر موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع قومه؟ هل قصر أخوه هارون فى مهمته ورسالته؟ ألم يكن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فى مهمة أكبر، وهى تلقى الرسالة من ربه؟ وهل يمكن أن يقوم بهذا العمل غيره؟

لقد أحس موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قبل لقاء قومه ورؤيتهم، بأنه قد أخطأ عندما سأله الله تعالى: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣﴾[طه]، فهذه عجلة وتسرع، وليس فى حق نفسه، ولكن فى حق قومه. فلم يكن الإيمان قد رسخ فى قلوبهم جميعًا، وقد بقيت آثار للجاهلية والضلالة فى قلوبهم، وهو ما ظهر عند طلبهم منه أن يجعل لهم آية صنمًا كما لغيرهم، مما شاهدوهم، وقد ظن موسى أن ما بلغهم به كان يكفى لتمام إيمانهم وعدم ضلالتهم، وأن أخاه هارون سيكمل دوره حين غيابه، ولكنهم لم يرضوا به أن يقوم مقام موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأصروا على حالهم حتى رجوع موسى.

وغضب موسى لله، وليس لنفسه، وذهب لكى يصلح ما أفسده السامرى، والقوم الذين اتبعوه، ويبلغ رسالة ربه إليهم، ويعلمهم كيف يتوبون ويتوب الله عليهم.

أما أخوه هارون، فقد أمرهم باتباعه وطاعته، وخشى أن يتركهم ويذهب لموسى لإبلاغه، وأعلمهم أن هذه فتنة حلت عليهم، ويجب أن يتوبوا منها. ولكن كل هذا لم يشفع له، وحمل موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ المسئولية الكاملة لهذا العمل على نفسه وأخيه، فتوجه إلى الله بالاستغفار له ولأخيه، وأحرق العجل وقذفه فى البحر، وثبت عقيدة قومه، بأن الله واحد لا شريك له، وأمر قومه الذين اتخذوا العجل، أن يتوبوا بقتل أنفسهم؛ حتى يتوب الله عليهم، ثم بعد ذلك أخذ الألواح: ﴿وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ١٥٤﴾[الأعراف]، فلم يبدأ بإبلاغ الرسالة الجديدة إلا بعد أن عالج ما أفسده الضالون، وتاب إلى الله.

– أين نحن من هذا الإحساس بالمسئولية تجاه أخطاء الآخرين؟ نحن لم نصل بعد إلى الإحساس بالمسئولية تجاه أخطائنا، فكثير منا لا يعترف أنه أخطأ فى حق الله أو الناس أو نفسه، وهو ما يعرقل ويؤخر، وربما يمنع التوجه إلى الله بالاستغفار. فهؤلاء اللاتى لم يعترفن

بأخطائهن، لا يمكن أن يتخطين هذه الدرجة إلى ما تليها، فيحسن بالمسئولية تجاه الآخرين؛ ولذلك فلا نحس بالمسئولية تجاه الآخرين إلا عندما نحس بالمسئولية أمام الله تجاه أعمالنا وأنفسنا.

ولهذه الدرجة عناصر مهمة يجب الاهتمام بها، وهى:

١ - الإخلاص لله فى جميع الأعمال والأوقات والحالات.

٢ -الصبر.

٣ - مراقبة الله.

٤ - تقوى الله.

٥ - التوكل على الله.

٦ - حب الله.

١- الإخلاص لله وتحمل المسئولية:

المسئولية الأولى عليك هى الإخلاص لله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ [البيِّنة].

وعن أبى هريرة - عبد الرحمن بن صخر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله لا ينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»** [رواه مسلم][1]، فعند إدراك الأخت المسلمة لهذه الآية وهذا الحديث، فإن تحملها المسئولية فيما تقوم به من أعمال يجب أن يزيد بزيادة إيمانها بالله وآياته وبرسوله وسنته ﷺ.

فتجعل جميع أعمالها عبادة لله سبحانه وتعالى، وتنظر إلى هذه الأعمال: هل يرضى الله عنها أم لا؟ هل هى خالصة له أم لنفسها أم أشركت فيه غيره - سبحانه وتعالى؟

فربما تقوم بأداء فريضة كالصلاة وهى ترائى الناس، وترغب فى رضاهم عنها، أو أن يقولوا: إنها مؤمنة، فهنا لم تخلص العبادة لله، وربما تكون أختًا مخلصة حتى فى أعمالها الدنيوية وليست فى أداء الفروض، مثل إتقانها فى العمل وإكمالها إياه؛ عملًا بسنة رسول الله ﷺ، أن من عمل عملًا فليتقنه، فتكون هنا على درجة من الإخلاص لله سبحانه وتعالى، وترجو تقبل الله لهذا العمل.

---

(١) مسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٦٤/ ٣٣).

٢ - الصبر وتحمل المسئولية:

﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣﴾[طه].

إن معظم الأعمال تحتاج إلى صبر لكى تتم على أكمل وجه، حتى ما تقوم به الأخت من صلاة فى وقت قد يحتاج إلى خمس دقائق فقط، فلكى تتم صلاتها يجب أن تتحلى بالصبر فى أدائها، وعدم التعجل أو التسرع لقضاء أعمال أخرى، وهو ما يخرجها أثناء صلاتها من الصلاة وهى فيها.

فكلما فكرت الأخت فى مسئوليتها تجاه الله فيما تقوم به من فروض وأعمال، وجدت أنها لابد أن تتحلى بنعمة الصبر، وإن لم تكن فيها: ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾[آل عمران:٢٠٠]، فهو أمر من الله - سبحانه وتعالى - وهو أفضل معين فى تحمل المسئولية، وخاصة عند الشدائد، وعند الغضب، وعند القيام بالأعمال التى تحتاج إلى وقت لإنجازها، وعند القيام بالأعمال التى تحتاج إلى دوامها. فلكى تصلى إلى درجة التعود على العمل، لابد أن يسبقها درجة الصبر عليه.

٣ - مراقبة الله وتحمل المسئولية:

إذا وجدت أختًا لك فى موقع عمل لا تتقن واجبها، هل تتوقعين أنها تراقب الله فى هذا العمل؟ بالطبع لا؛ فهى أولًا تراقب هواها وراحتها الجسدية أو العقلية، ولا تلقى بالًا برضاء الله عليها أو غضبه، فالمدرس داخل الفصل لا يراه المدير أو المفتش عليه، فإذا قام بأداء واجبه كما يحب الله ويرضى، فقد راقب الله فى عمله، وإذا لم يقم بذلك فليس عنده خوف من الله، ولا مراقبة له.

يقول الله تعالى فى سورة الحديد: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ﴾[الحديد:٤]. ويقول الله تعالى فى سورة غافر: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾[غافر].

والإسلام يدرب المؤمن - منذ صغره - على هذه الصفة؛ لتحمل المسئولية فى صغره قبل بلوغه ووضعه فى مكان المسئولية، يقول الرسول ﷺ: **«يا غلام، إنى أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله»** [رواه الترمذى][(١)].

(١) الترمذى فى صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥١٦)، وقال: حسن صحيح.

فهل انتظر الرسول ﷺ إلى أن يكبر الغلام ويصل لسن التكليف لكى يعلمه هذا الكلمات؟، أم كان عليه أن يعلمه إياها فى صغره؟! فهذه المراقبة تكون حصنًا من الوقوع فى الذنب أو الخطأ صغيرًا أو كبيرًا، وهى ما يستدعى ربطها بالتوبة إلى الله - عز وجل.

٤ - تقوى الله وتحمل المسئولية:

يقول الله تعالى فى سورة التغابن: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، فعند تحملك المسئولية تحتاجين إلى ضرورة تقوى الله - سبحانه وتعالى - على قدر الاستطاعة، بما يعين على أداء العمل وإكماله، فإذا وقعت فى مشكلة - وهذا أمر عادى وطبيعى - فإن تقوى الله والخوف منه هما المخرج: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢﴾ [الطلاق]، وإذا ضل الطريق وصعب، فإن تقوى الله هى الفرقان، وإذا أخطأتِ ووقعتِ فى الذنب والإثم، فإن تقوى الله والخوف منه - أينما كنت - هو المكفر عن هذه السيئات والذنوب، يقول الله تعالى فى سورة الأنفال: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢٩﴾ [الأنفال].

٥- التوكل على الله وتحمل المسئولية:

«بسم الله توكلت على الله، اللّٰهم إنى أعوذ بك أن أضل أو أُضل أو أذِل أو أُذل، أو أظِلم أو أُظلم، أو أجهل، أو يُجهل علىَّ»(١).

كان يقولها ﷺ عند الخروج من البيت.

وهل كان يخرج الرسول ﷺ من بيته إلا ليحمل مسئولية تبليغ رسالة ربه إلى الناس كافة. وهل هناك مسئولية أعظم من هذه المسئولية التى وكل الله بها أنبياءه والمرسلين لتبليغ رسالته للناس؟!

فأنت تحتاجين إلى التوكل على الله فى جميع ما وكل لك من أعمال، وهذا التوكل يجعلك تتمين العمل كما يحب ويرضى الله - سبحانه وتعالى - فهو أداء للعمل على أكمل وجه، وتوكل واستعانة بالخالق القادر على كل شىء.

وإذا كان من يتوكل على الله فى الدنيا فهو حسبه وكافيه، فإن فى الآخرة هم ممن يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب. هل تحبين أن تكونى ضمن هؤلاء؟

---

(١) الترمذى فى الدعوات (٣٤٢٧)، وقال: «حسن صحيح».

٦ - حب الله سبحانه وتعالى وتحمل المسئولية:

يقول الله تعالى فى سورة المائدة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤ ﴾ [المائدة].

فمن لم يتحمل مسئولية الدين وتركه وارتد عنه، فلا ينتظر أن يحبه الله، ولا يكون محبًّا له على الإطلاق، وقد وضح الله لنا فى الآيات صفات هؤلاء الذين يحبون الله ويحبهم الله تعالى؛ فهم أذلة على المؤمنين وأعزة على الكافرين، وهم الذين يجاهدون فى سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم، من رئيس أو صاحب عمل.

وحب الله واتباع رسوله ﷺ هما الطريق للغفران من الذنوب، يقول الله تعالى فى سورة آل عمران: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١ ﴾.

إذن فمن تريد أن تنجح فى مدرسة موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فى التوبة، يجب عليها أن تتعلم وتتقن كيف تتحمل المسئولية تجاه الآخرين، سواء أكانوا أهلها أو أخواتها أو زميلاتها فى العمل أو أقاربها وجيرانها، وأن تتذكر حديث الرسول ﷺ: **«كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»**[1]، فكل أخت تعتبر مسئولة عمن حولها، ومن وكلت بتحمل مسئوليتهم بالخصوص، ولا يجب أن ترمى المسئولية على من حولها فى جميع الأعمال، بل يجب أن ترى نفسها فى موقع المسئولية، وربما تكون هذه المسئولية هى تحمل الأمانة التى أبت السموات والأرض والجبال أن تحملها، وحملها الإنسان.

وربما تقول الأخت: كيف تكون مسئولة عن أعمال غيرها؟ ألا يكفى أن تتحمل هى مسئولية عملها فقط؟ فلتنظر الأخت إلى أخطاء الغير وذنوبهم، وتتساءل: هل هذه الأخطاء التى جرت من حولها وقعت على أصحابها فقط؟ أم عليهم ومن حولهم؟

ستجد أن كثيرًا من الأخطاء تشمل مرتكبيها، وأناسًا آخرين لم يكن لهم يد فى الخطأ أو الذنب.

إذن، فهل تحمل نتائج العمل القائم به فقط أم تحمله غيره معه؟ فكما أن الإجابة هنا أن النتائج لم تقع على مرتكب الخطأ فقط، فكذلك المسئولية لا تقع على عاتق فرد فقط. ونحن لا

---

(١) البخارى فى العتق (٢٥٥٨).

يجب أن ننظر إلى المسئولية من الجانب الذى يدعو للتنصل منها وتحميلها على عاتق الآخرين، ولكن المسلم ينظر للمسئولية ويحملها على نفسه أولًا، فهل تستطيعين أن تتحكمى فيمن حولك أو تسيطرى عليهم بدرجة تؤثر على أعمالهم كما ترغبين؟ أم الأسهل - والذى تحت يديك - هو نفسك؟ الأخت قادرة على التحكم فى نفسها وتوجيهها كيف شاءت، وقادرة على رياضة هذه النفس وتزكيتها ؛ ولذلك فهذا هو الطريق الذى يجب أن تتبعه الأخوات تجاه أعمال غيرهن، وهو ما يعطى المؤمنة درجة تحمل المسئولية، والتى لا تستطيع أن تتحملها غير المؤمنات الصالحات، وهذه المسئولية ستجعل من الأخت نورًا يهتدى به غيرها فى ظلمات الطريق، وسيجعلها دائمًا على أهبة الاستعداد؛ للمساعدة المادية والمعنوية، ولا تألو جهدًا فى تقديم الخدمات لغيرها، وهى أكثر حساسية وشعورًا بأحوال من حولها، فتستطيع أن تدرك الخطأ قبل الوقوع فيه، فتنتبه له، وتدعو إلى تجنبه، وتوضح السبل للنجاة وتصحيح الطريق، وهى لا تغضب لنفسها، بل تغضب لله، وهو ما يدعوها إلى الصبر على أخطاء الآخرين.

والأخت التى تتحمل المسئولية تجاه الآخرين، تحظى بحب وثقة من حولها؛ فهى طوق النجاة لهن، ولا يراد منها غير الخير لهم ولغيرهم.

وهى تتمتع بدرجة عالية من الإيثار، يجعلها تقضى أوقاتًا طويلة فى خدمة غيرها، وحل مشكلاتهم، والوقوف بجانبهم وقت الأزمات.

والأخت القادرة على تحمل مسئولية غيرها، أوسع إدراكًا وخبرة؛ لكثرة تعاملها مع القضايا والمشكلات التى تعرض عليها، والتى تراها هى بنفسها وتحاول حلها. وهى قائدة فى أى موقع وضعت فيه، وهو ما يعنى أن لديها علمًا بأكثر الأمور حولها، وعلمًا بكيفية التعامل مع المواقف المختلفة بجدية.

كل هذه الصفات يصعب على المتكاسلات - واللاتى أبين أن يحملن الأمانة - أن يتحملنها؛ فهن يتميزن بعكس هذه الصفات، مثل حب النفس والغضب لها، واتباع الهوى، وحب الدنيا وحب العزلة وتفضيلها، وتحميل الغير مسئولية أعمالها. فكيف تكون مثل هذه الصفات فى أخت مسلمة آمنت بالله، وكان الله ورسوله أحب إليها مما سواهما؟!

ولذلك علينا مراجعة أنفسنا؛ لنرى من هم الذين يجب أن نتحمل مسئوليتهم، وكيف. وسأضع بين يديك هذه السطور؛ لترى أهمية تحمل المسئولية تجاه الآخرين.

- أخت داومت وحافظت على صلواتها، ولم تأمر أخواتها فى المنزل أو أهلها بالصلاة

ونسيت الآية الكريمة: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه:١٣٢]، ولم تحس بالمسئولية تجاه من حولها، فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأداء الفرائض. فهل رضيت بأضعف الإيمان، وهو مواجهة المنكر بالقلب دون اليد أو اللسان؟ أم ستضع نفسها بعد ذلك فى موضع المسئولية تجاه الكبير والصغير فى بيتها.

وكذلك الحال للأخوات الملتزمات فى المدرسة أو الجامعة، هل أغلقن على أنفسهن العلم، وتركن غيرهن فى مستنقع الجهل والرذائل؟ أم سيأمرن بالمعروف وينهين عن المنكر ويتحملن مسئولية جهل غيرهن على أعناقهن ويتألمن لذلك؟

– أم أعطت الثقة الكاملة لبناتها فى الإقامة بمفردهن فى بلد بعيدة واطمأنت لذلك، ولم يخطر لها على بال أنهن سيقعن فى الرذيلة؟ هل تحمل نفسها مسئولية ذلك؟ أم تحملها على والدهن؟ أم على البنات؟

فكيف تكون أمًّا وراعية فى بيت زوجها، ولا تتحمل مسئولية بناتها أمام ربها؟

– إن تحمل المسئولية تجاه الغير لا يعنى فرض السلطة عليهم، وتعجيزهم عن العمل، وتحمل مسئولية أنفسهم. كما لا يعنى إلقاء العبء والمسئولية الكاملة على أى الأطراف، فالفهم الخاطئ لتحمل المسئولية، يسبب الطغيان والأنانية وحب النفس والتسلط على الآخرين ومضايقتهم، وكثيرًا ما تقع الأخوات الأكبر سنًّا فى هذا الوضع، فلا يحصدن غير الكره والعناد.

فهذه أخت اعتبرت نفسها مسئولة عن بعض الأخوات، فأخذت فى تجميع معلومات عنهن بقدر ما استطاعت، ثم بدأت تنحرف عن طريق المسئولية الحقيقية، إلى طريق التسلط وفرض الرأى وإجبار غيرها على تنفيذه، فهى لا ترى الحق إلا معها، ولا ترى الباطل إلا من غيرها؛ ولذلك فقد أساءت لنفسها ولدورها فى موقع المسئولية، وكانت قدوة سيئة لغيرها.

إن تحمل المسئولية تجاه الغير لا يعنى استغلالهن لمصلحة القائم عليهن؛ فالبعض يستغلون موقعهن المسئول، فيعكفن على جمع ما تستطيع جمعه من هدايا وأشياء مادية، أو ترغب فى الحصول على التقدير والاحترام الأكثر من اللازم، وإلا أساءت لغيرها. فهل هذه تحملت مسئولية غيرها؟ أم تحملت وزرهن جميعًا، وباءت بغضب من الله عليها؟!

– إن تحمل المسئولية تجاه الغير، يتطلب من الأخت التصحيح والتعديل، والتطوير يعنى تصحيح الأخطاء، وتعديل المسار، وتطوير الأعمال؛ لذلك فهو من أكثر الأساليب الإيجابية

فى التعامل مع الغير وتحمل مسئوليتهم، فهو لا يحافظ على الوضع على ما هو عليه؛ فهناك دائمًا الأفضل، ولا يحمل غيره ما لا يستطيع، ويعين الغير فيما لا يستطيع ولا يقدر عليه.

حدود علم الناس بالله تعالى:

قال تعالى فى سورة الأعراف: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣ قَالَ يَٰمُوسَآ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ [الأعراف].

أدرك موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أنه أخطأ فى حق نفسه عندما طلب من ربه أن ينظر إليه، فلا يعنى اصطفاء الله له على الناس أن يكتسب صفات خارج نطاق البشر، والتى حددها له الله تعالى، فإذا كان الله قد مكنه من سماع كلامه، والحديث معه، فإن ذلك لا يعنى إمكانية عينه المحدودة - بصفات الرؤية البشرية والتى لم يهبها الله أكثر من ذلك - أن ترى الله سبحانه وتعالى.

وقد طلب قوم موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أن يروا الله جهرة، ووضعوا هذا الطلب شرطًا لإيمانهم برسالة موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وكانت عاقبتهم أن أخذتهم الصاعقة وهم لا ينظرون. طلبوا أن يكون لديهم صفات خارقة، وأن يتميزوا عن الخلق برؤية الله كشرط للإيمان به، رغم أن هؤلاء كانوا من خيرة بنى إسرائيل.

يقول الله تعالى فى سورة البقرة: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ٥٥ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٥٦﴾ [البقرة].

وربما تسألين أيتها الأخت المؤمنة: هل الإيمان بالله يقتضى معرفة الله كما يعرف الإنسان المخلوقات حوله؟ ليس الخالق كالمخلوق؛ فالخالق يعرف كل شىء عن مخلوقه، ولا يعرف المخلوق عن خالقه إلا ما سمح ووهب له خالقه من صفات تمكنه من ذلك، فالإيمان بالله وحده لا شريك له، يقتضى الإيمان بأنه رب كل شىء ومليكه وخالقه، وأنه هو المستحق وحده للعبادة وطاعته فيما يأمر، والابتعاد عما نهى عنه، وأنه الكامل فى صفاته وأسمائه.

وهذه الصفات هى الثابتة فى الكتاب والسنة، والتى تنزه الله سبحانه وتعالى أن يكون له شريك أو مثيل. يقول الله تعالى فى سورة الشورى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى:١١]،

فالإيمان واجب على كل مسلم، بأن الله تعالى له الصفات التى وصف بها نفسه أو وصفه بها رسوله، ولا يتجاوز القرآن والحديث النبوى.

ولكن السؤال عن ماهية هذه الصفات وكيفيتها، لا يصح للمؤمن؛ ولذلك فقد قال الكثير من السلف الصالح عن كيفية استواء الله عز وجل: إن الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

والصفات التى ورد ذكرها فى الكتاب والسنة نوعان: صفات ذات وصفات فعل.

فأما الصفات الذاتية: فهى التى لا تنفك عن الله سبحانه وتعالى؛ كالنفس والعلم والحياة والقدرة والسمع والبصر والكلام والوجه والقدم والملك والعظمة والكبرياء والعلو والغنى والرحمة. وضابط هذا النوع من الصفات الملازمة لذات الله - عز وجل - أنها قائمة فى الله سبحانه لا ينفك عنها.

أما صفات الفعل: فهى ما تعلق بمشيئة الله وقدرته؛ كالاستواء والنزول والمجىء والعجب والضحك والرضا والحب والكره والسخط والفرح والغضب والمكر والكيد والمقت.

والواجب فى هذه الصفات بنوعيها إثباتها لله - عز وجل - على حسب المعنى الذى يليق بكمال الله تعالى، وهو المعنى الحقيقى لها، الذى ليس فيه تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف ولا تكييف.

أما أسماء الله - عز وجل - فهى أعلام عليه، أخبرنا بها الله فى كتابه، والرسول ﷺ فى سنته. وكل اسم من هذه الأسماء يدل على صفة أو صفات لله سبحانه، وكل اسم منها مشتق من مصدره، كالعليم والقدير والسميع والبصير، ونحوها فالعليم مشتق من العلم، وهو يدل على صفة العلم للبارى.

والاسم الجامع لمعانى الأسماء كلها، والصفات كلها هو (الله).

أما عدد أسماء الله - جل وعلا - يقول الرسول ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا؛ مائة إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة، إنه وتر يحب الوتر» [أخرجه البخارى والترمذى][(١)].

وهناك أسماء لم يخبرنا بها الله تعالى، واستأثر بها فى علم الغيب عنده .. روى عن الرسول

(١) البخارى فى الشروط (٢٧٣٦)، والترمذى فى الدعوات (٣٥٠٦).

ﷺ أنه قال: **«ما أصاب أحدًا قط هم ولا حزن، فقال: اللّهم إنى عبدك وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتى بيدك، ماضٍ فىّ حكمك، عدل فىّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته فى كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء حزنى، وذهاب همى وغمى، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحا»**، فقيل: يا رسول الله، ألا نتعلمها؟ فقال: **«بلى. ينبغى لمن سمعها أن يتعلمها»**[(١)].

ومعنى إحصاء أسماء الله هو معرفتها وحفظها وفهمها، والإيمان بها وحسن المراعاة لها، والمحافظة على حدودها فى معاملة الله بها، ودعاء الله – عز وجل – بها[(٢)].

وقد جمع السلف الصالح أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين من القرآن، ويمكن للأخوات الصالحات أن يقمن بحفظها، وتدبر معناها، ومعرفة حظهن من هذه الأسماء على مقتضى العبودية لله تعالى.

فمثلًا حظ الأخت المسلمة من اسم الله الرحمن على مقتضى العبودية، هو أن تكون رحيمة بكل مخلوقات الله تعالى، حتى ما تقوم بذبحه، ولتقتدى بالرسول ﷺ، بأن تحد الشفرة، وتريح الذبيحة من الطيور أو الحيوانات التى يأكلها الإنسان، ولتتذكر أن لكل ذى كبد رحمة، وأن من لا يرحم لا يُرحم، وأن نرحم من فى الأرض؛ ليرحمنا الرحمن الرحيم.

ويمكن أن تتذكر الأخت أسماء الله الحسنى فى كل حياتها وظروفها، وتسأل نفسها: أين حظها منها على مقتضى عبودية الله – عز وجل؟ هل رحمت من يستحق الرحمة؟ هل عفت عمن ظلمها وطلبت العفو من ربها؟ هل أقسطت وعدلت فيما تحت يدها؟ هل نفعت غيرها من المؤمنات والمسلمات؟ هل حفظت نفسها ومالها وما تعوله وما هو تحت مسئوليتها؟ هل شكرت الله سبحانه وتعالى على كل ما أعطاها من نعم لا تحصى ولا تعد كما يحب الله ويرضى؟ فلنتذكر معًا هذه الأسماء:

هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن – الرحيم – الملك – القدوس – السلام – المؤمن المهيمن – العزيز – الجبار – المتكبر – الخالق – البارئ – المصور – الغفار – القهار – الوهاب – الرزاق – الفتاح – العليم – القابض – الباسط – الخافض – الرافع – المعز –

---

(١) أحمد (١/ ٣٩١)، وقال الشيخ أحمد شاكر (٣٧١٢): «إسناده صحيح».

(٢) محمد نعيم ياسين: الإيمان، دار الفرقان للنشر والتوزيع، ص (٢٢.١٥).

المذل – السميع – البصير – الحكم – العدل – اللطيف – الخبير – الحليم – العظيم – الغفور – الشكور – العلى – الكبير – الحفيظ – المقيت – الحسيب – الجليل – الكريم – الرقيب – المجيب – الواسع – الحكيم – الودود – المجيد – الباعث – الشهيد – الحق – الوكيل – القوى – المتين – الولى – الحميد – المحصى – المبدئ – المعيد – المحيى – المميت – الحى – القيوم – الواجد – الماجد – الواحد – الأحد – الفرد – الصمد – القادر – المقتدر – المقدم – المؤخر – الأول – الآخر – الظاهر – الباطن – الوالى – المتعالى – البر – التواب – المنتقم – العفو – الرءوف – مالك الملك – ذو الجلال والإكرام – المقسط – الجامع – الغنى – المغنى – المعطى – المانع – الضار – النافع – النور – الهادى – البديع – الباقى – الوارث – الرشيد – الصبور.

وقد أجمع أهل السنة والجماعة قاطبة – متقدمهم ومتأخرهم – على إثبات الصفات التى وصف الله بها نفسه، ووصفه بها رسول الله ﷺ على ما يليق بجلال الله وعظمته، إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيها بلا تعطيل، كما قال تعالى فى سورة الشورى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى].

***